الترجمة فى الأدب العربى

وتراجم عظمائنا المحدثين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى العام الماضى فكر جماعة من الأساتذة والكتاب فى اصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعظماء مصر فى العصر الحديث . وكانت الغاية من اصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شىء ؛ فليس فى تراثنا التاريخى المعاصر مثل هذه السلسلة ؛ ومازالت سير الكثيرين من عظمائنا مجهولة مغمورة ، ومازال شبابنا المتعلم يتوق الى استعراض هذه السير فى بحوث محققة ممتعة تغرى بالقراءة والدرس فلا يجدها . وسير العظماء زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء للشعور الوطنى . ولكن هذا المشروع العلمى الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير ، وطوى كما طويت مشاريع مثله من قبل .

إن تراجم العظماء تشغل فى آداب الأمم العظيمة وفى تاريخها أسمى مكانة ، فأقطاب الأمراء والساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين ، هؤلاء جميعاً يأخذون مكانهم فى التاريخ القومى العام ، ثم يأخذون مكانهم فى تراجم خاصة ، تذهب أحياناً الى البحوث النقدية المستفيضة التى تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا ؛ وتقتصر أحياناً على صور موجزة ، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب وللقراءة العامة . ويخص هؤلاء العظماء بالدرس فى كل عصر ووقت ، ويحظون بمختلف البحوث والدراسات ، وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، ولكل مقامها العلمى والأدبى . أما نحن فكما أن النقص يعتور تاريخنا القومى ، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بما يجب من تحقيق وإفاضة ، فكذلك يعتور النقص لدينا هذه الناحية الخاصة ، أعنى ناحية التراجم والسير المفردة ؛ وقلما حظيت آدابنا التاريخية بترجمة محققة وافية لعظيم من عظمائنا المحدثين .

على أن هذه الناحية الخاصة من المباحث التاريخية تشغل فى الأدب العربى القديم مكانة هامة . وقد بدأت العناية بها فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثانى للهجرة يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى تملأ فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العظماء ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين ، والكتاب والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة ، ومنها التراجم والسير الفياضة ، ومنها الموجزة . وفى الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لاتحظى به أية آداب أخرى ، اذا استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية ، ونهضت فيه الآداب الأخرى . غير أن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ، وينقطع سيره انقطاعاً تاما ، فلا نكاد نظفر فى ذلك العصر بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة ؛ وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق الى تداركها حتى اليوم .

ويجدر بنا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفاً من تراث التراجم والسير الخاصة فى الأدب العربى ، لنذكر شبابنا المتعلم بما خص به هذا الفن فى أدبنا من العناية والاهتمام ، وما انتهى اليه من النضج والتقدم . وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط ، إذ يقتضى الالمام بجميع آثار هذا الفن فصولا بأسرها . وفى مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة ، وأشهرها وأنفسها سيرة ابن اسحاق التى دونت فى منتصف القرن الثانى من الهجرة . وكتب ابن النديم كتاب الفهرست الشهير فى أواخر القرن الرابع ، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره ؛ ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ؛ فنجد الخطيب البغدادى المتوفى فى أواخر هذا القرن يستعرض فى كتابه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة فى جميع الدول الاسلامية ؛ وفى القرن السابع وضع القاضى الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته العامة « وفيات الأعيان » فى تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان

من أنفس آثار الترجمة العربيـة إن لم يكن أنفسها جميعاً . فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الاسلامية ، ومنها تراجم ضافية تملأ صفحات كبيرة ، ومنها تراجم موجزة ، ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير ؛ وقد عنى ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة فناً حقيقياً ، وما زال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها . وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره فى القرنين الثامن والتاسع ؛ وظهرت فيه الموسوعات الفنية الشاسعة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه ، ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر ، كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو موسوعة كبيرة فى تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات . وللصفدى أيضاً كتاب « الوافى بالوفيات » ، وهو موسوعة عامة فى تراجم أعلام الأمم الاسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره ، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات ؛ وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تغرى بردى بكتاب عنوانه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ضمنه تراجم الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أى إلى منتصف القرن التاسع . ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة ، يختص كل معجم منها بقرنه ، وأولها كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للحافظ بن حجر العسقلانى ؛ ثم كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوى ، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ؛ ثم كتاب « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى العامرى ، ثم « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى الحموى ؛ ثم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لأبى الفضل المرادى . وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر فى عهد الفتح الفرنسى طائفة كبيرة من أعيان مصر فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم . وترجم لنا المغفور له العلامة على باشا مبارك كثيراً من أعيان مصر فى العصر الأخير فى كتابه « الخطط التوفيقية » ؛ ووضع المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر فى القرن الرابع عشر ، وهى التى نشرتها « الرســـالة » تباعاً فى أعدادها الأخيرة .

هذا عن التراجم العامة . وأما عن الترجمة المفردة التى تقتصر على سيرة شخص معين ، والترجمة الخاصة التى تعالج طائفة خاصة من الأعلام ، فلدينا منها الكثير أيضاً ، ونستطيع أن نمثل للترجمة المفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى فى أوائل القرن الثالث ؛ وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المصرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليلة ؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى « بعجائب المقدور » لابن عربشاه الدمشقى من علماء القرن الثامن ؛ وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقلمه ؛ وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوى ، وترجمة ابن الخطيب للمقرى ، وغيرها . ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاة والنحاة وغيرهم ، مثل أخبار الحكماء للقفطى ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر ، وكثير غيرها ؛ هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها . (١)

والخلاصة أن الأدب العربى غنى بتراثه فى فن الترجمة ، وقلما تنافسه فى ذلك آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحديث . ولكن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ؛ ولو لم يوهب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبرتى فى القرن الثانى عشر (القرن الثامن عشر الميلادى) ويتحفنا بموسوعته النفيسة « عجائب التراجم والآثار » لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولطمست سير الكثيرين من أعلامه . تعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى ، لأنها ازدهرت فى

(١) يستطيع من يريد التوسع فى معرفة كتب التراجم والسير أن يرجع إلى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ، وكتاب « كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون » لحاجى خليفة .

عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية ؛ ولكنها مع ذلك تتمتع فضلا عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخي ، وفي وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نفائس مادته ؛ وقد كان الجبرتي خاتمة هذا الثبت الحافل من مؤرخين عنو بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة ، ولم يقع لتراثنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتي أي منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد تقدمت الباحث التاريخية في العصر الأخير تقدماً واضحاً ، وبدىء بكتابة تاريخ مصر الحديث [1] ؛ ولكنا حتى في هذه الناحية العامة ما زلنا في مستهل جهودنا ؛ ومما يبعث على أشد الأسف والألم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواء من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا ، وأن نجد في مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجده في لغتنا العربية .

أما النواحي الخاصة في تاريخنا القومي ، وأما سير عظمائنا ، وهي التي أوحت الينا بكتابة هذا الفصل ، فما زالت مغمورة منسية . وأي نسيان ، بل وأي نكران أشد من أن يبقى ذلك الثبت الحافل من عظمائنا ومفكرينا في العصر الحديث دون ذكر محقق منظم ؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابي والبارودي وعلي مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم ضافية ، نقدية محققة يقرأها الشباب والخلف ؟ إن العظماء في الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكرهم بين مواطنيهم ؛ فاذا توفي أحدهم صدرت عنه غداة وفاته الفصول والكتب المحققة ، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته . أما نحن فننظر الى التاريخ المعاصر نظرة الجمود والاستخفاف ، ونكتفي يوم يذهب أحد عظمائنا بأن نشيعه الى قبره ببعض المقالات والمراثي ، ثم لا يلبث أن يغمره النسيان الى جانب أسلافه ! وهكذا يتكدس أمامنا ثبت عظمائنا فلا نتلقى من سيرهم وأعمالهم الا صوراً مشوهة ، بينما نعرف الكثير عن عظماء الأمم الأخرى ، لأننا نجد في سيرهم كتباً محققة ممتعة تشوق قراءتها .

ولاريب أن معظم التبعة في ذلك الاهمال المشين ترجع إلى نوع الثقافة التاريخية الذي نتلقاه في مدارسنا ؛ فهذه الثقافة ما تزال قاصرة ، بعيدة عن أن تخص التاريخ القومي بما يجب من عناية ، بعيدة عن أن تذكي الشعور الوطني في نفوس النشء . والشعور بالكرامة القومية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عظماء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها .

هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات « الرسالة » لننبه على احدى مواطن الضعف في ثقافتنا وآدابنا التاريخية ؛ ولنذكر بها إخواننا الذين فكروا منذ عام في وضع تراجم وافية محققة لعظماء مصر في العصر الحديث أن يعاودوا البحث في هذا المشروع العلمي الوطني الجليل ، ولعلهم موفقون هذه المرة الى تحقيقه وإخراجه ؛ فيسدون بذلك ثغرة مشينة في تاريخنا القومي ويضعون سنة حسنة في آدابنا التاريخية ، ويستحقون بذلك عرفان الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

محمد عبد الله عنان
المحامي

(١) يسرني أن أنوه بهذه المناسبة بمجهود صديق المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك وكتابه الجامع القيم « الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » وهو خير ما أخرج بالعربية في تاريخ مصر الحديث .

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

كتب مدرسية

تطلب الكتب الآتية التي قررتها وزارة المعارف من اللجنة بشارع الكرداسي رقم ٩ وثمنها كالآتي :—

مليم		
١٠٠	مبادىء الكيمياء الجزء الأول	: السنة الثالثة الثانوية
١٠٠	مبادىء الكيمياء الجزء الثاني	: السنة الرابعة الثانوية
١٠٢	مبادىء الميكانيكا	: السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٥٠	المنتخب من أدب العرب الجزء الأول	: السنة الثالثة الثانوية
٢٥٠	المنتخب من أدب العرب الجزء الثاني	: السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٢٠	المجمل في تاريخ الأدب العربي	: السنة الثالثة الثانوية
١٠٠	المفصل في تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٥٠	المفصل في تاريخ الأدب العربي الجزء الثاني	
٢٠	كتاب الأخلاق	: السنة الثالثة الثانوية
١٢٠	تاريخ القرن التاسع عشر	: السنة الخامسة الثانوية